الفصل الرابع

العلاقة بين تطور الحياة والعودة للتجسد

obeikandl.com

obeikandl.com

التطور والتكوين الروحى للإنسان

قد يبدو غريبًا للوهلة الأولى وجود صلة بين موضوع التجسد وموضوع التطور الإنسانى بوجه عام، ولكن وجه الغرابة يزول إذا ما وضعنا فى الإعتبار الديناميكية النوعية التى تميز الإنسان وصلتها بإستمرار الحياة بعد الموت. وهذه الديناميكية يتوقف عليها وجود الحقل الكهربى/ المغناطيسى لجميع الكائنات الحية، وتجدد الخلايا والأنسجة فى أى عضو صحيح أو مريض. وبالتالى الحفاظ على التكوين الأصلى البيولوجى للكائنات الحية، وما يرتبط بهذا الحفاظ من ضرورة وجود «حركة دائرية ديناميكية» إلى جانب الحركة الدائرية الآلية التى تعتبر من أهم القوانين الكونية للحياة، ومنها قانون دورات الحياة العضوية.

يقول العالم «آرثر أوسبورن Arthur Osborn»: «أن البيئة التى نولد فيها، وطباعنا، وعقولنا، وارثنا الجسمانى، بل أهم أحداث حياتنا ليست نتيجة محض مصادفات، بل ناجمة عن طاقات تنبعث من أعمق ذواتنا الروحية Physical Selfes التى عبرت عن نفسها خلال عدة أجساد عضوية سابقة. وما يلزمنا أن نضعه فى أذهاننا بوضوح عندما نحاول أن نتفهم نظرية العودة للتجسد أن ما تعنيه عبارة ـ إننا عشنا من قبل ـ ليس هو أن شخصًا يدعى جون سميث قد عاش من قبل، بل أن جون سميث هذا عبارة عن تعبير مؤقت عن مركز روحى Physical Center أساسى ودائم. وهو عبارة عن تعبير ذى أبعاد ثلاثية 3D (طول وعرض وإرتفاع) عن كائن آخر ذى أبعاد أخرى أربعة 4D (طول وعرض وإرتفاع وزمن بحسب نظرية النسبية) أو ربما أكثر من أربعة أبعاد.

ولذا فإن تنبهنا الفيزيقى Physical Awarenes يمثل بؤرة مؤقتة من وعينا على مستوى واحد للوجود. وإن من المعانى المتداولة الآن فى علم النفس إن شطرًا صغيرًا من وعينا الكلى هو ذلك الذى يكون فى متناولنا عند مزاولة نشاطنا المألوف. أما عندما نريد أن نتفهم نظرية العودة للتجسد فإنه يكون علينا أن نتخيل ذواتنا الحقيقية Real Selves بوصفها سماوية وأزلية.

ويستطرد د. أوسبورن: «وعلى هذا النحو، فإن نظرية الأنا المتجسدة تكون مجرد نموذج آخر لموكب الحياة العضوية المماثلة لها والموازية لها فى نفس الوقت. فأشكالنا العضوية إن هى إلا تعبيرات دورية عن أنوية (جمع نواة) بلازمية دائمة Permanent Germ-plasma. فأجسادنا تجئ وتذهب، لكن الخصائص السلالية محفوظة فى خلايا هذه الأنوية. وكل الأشكال الحية تنبعث من إمكانات غامضة للبذور أو الخلايا. وطاقات الحياة محفوظة دائمًا فى مراكز، وتنبثق عن هذه المراكز مجموعات طويلة من الأشكال. والمحاجاة بالتماثل محاجاة خطرة وتحتاج إلى قدرات ناقدة، لكن فى نقاش موضوع كهذا الموضوع، فإن الإنسان يجد نفسه مضطرًا أن ينظر حوله باحث عما إذا كانت الطبيعة بوجه عام تعرف مبدأ مماثلًا أم لا».

«وبما إننا متفقين من خلال الإثباتات والقرائن والحقائق الكثيرة والعديدة التى إستعرضنها فى السابق (من خلال كتابى ـ الروح أسرار وحقائق) والتى تعزز فكرة وجود ذات روحية مستقلة عن الجسد العضوى، فإننا لسنا بحاجة لأن نغالى عندما نستند إلى نظرية د. أوسبورن التى تقول إن هذا المركز الروحى يملك القدرة على أن يعبر عن نفسه فى شكل عضوى لأكثر من مرة. وما فعله هذا المركز الروحى ذات مرة، بمقدوره أن يفعله ثانية فيما يبدو».

«وهذه مجرد طريقة للتقرير بأن الطاقة التى تبنى الأشكال مستقلة عن هذه الأشكال. والحقيقة التى تقول أن بلايين الخلايا يجب أن تتجمع لكى تصنع تشكيلًا عضويًا تشير إلى وجود مبدأ موجه بمقدوره أن يشكل، وأن يجمع بين الخلايا فى أشكال تكون تعبيرًا عنه. وكل الأشكال مركبة Composites (أى غير

بسيطة)، ولذا يجب أن تتحلل، لكن الطاقات التى تجمعها لا تفنى. فالحياة تحتفظ بطاقاتها فى صنع مراكز للوعى، وهذه المراكز التى توجد فيما وراء الأعضاء المادية Superphysically، من المتصور إنها تعمل فى توافق مع قانون دورات الحياة».

«وعند التسليم بوجود هذه المراكز التى تمثل المبدأ الذى يشكل الفردية ـ ولنستخدم فى التعبير عنها كلمة الروح ـ فإن منطق نظرية العودة للتجسد يصبح قويًا جدًا. ويصبح بصفة جذرية عبارة عن فقة التطور مطبق على الروح. ويكون بمقدورنا أن نتصور من سلسلة التجسدات أنها جزء من موكب نتمكن عن طريقه من حيازة القوة والقدرة على السيادة على عوالم المادة. ويكون من شأن هذا الإعتقاد أن يرفع عنا الإحساس بالظلم إزاء ما يولده إنتفاء المساواة من ظلم، وأن يقوى إعتقادنا فى أن حياتنا الشخصية لها مغزى معين. وأن يوقظ فينا الإحساس بالمسئولية الفردية والتقدير التام لهذه الحقيقة، وهى أننا مراكز للسببية، وإننا نصنع ظروفنا الخاصة، وإننا حكام مستقبلنا مادام حاضرنا رهنًا إلى حد بعيد بماضينا».

«وإنما هى الطاقات الخالقة لعقولنا التى تحقق هذه النتائج. فإن الأفكار التى تراودنا عبارة عن طاقات ترتد إلينا بحسب قدراتها الديناميكية، كما قد تذهب للآخرين، إن خيرًا أو شرًا. ويتعين علينا أن نتصور أيضًا أن طاقاتنا العقلية سوف تبقى حتى بعد وفاة أجسادنا العضوية، وإنها سوف تؤثر فى حالاتنا اللاحقة للموت. وليس هذا فحسب، بل إن هذه الطاقات سوف تخلق أشكالًا فى المادة التى وراء المادة العضوية، وإنها تحدد العوامل التى تقع وراء الظروف التى سوف نولد فيها ثانية. وفى ضوء الأبحاث الروحانية الحديثة، لا توجد أية صعوبة فى تقبل فكرة دوام الأشكال التى يخلقها العقل. ونحن منذ الآن قد ألفنا الأشكال الأكتوبلازمية (أشكال تتشكل من طاقات العقل الداخلية وتتجسد بشكل خارجى واضح وظاهر)، وأيًا كانت النظرية التى يتمسك بها الإنسان إزاءها، فإنها تبين على الأقل أن ثمة نوعًا من المادة يمكن أن يتشكل بحسب العقل، وإنه يحوز طاقات معينة».

هكذا عرض د. أوسبورن نظريته عن الإرتباط التطورى البيولوجى بالتطور الروحى ودورة التجسد، وقد إنتهى عدد من أبرز العلماء الآخرين إلى الإقتناع بصحة مبدأ العودة للتجسد بوصفه مبدأ بيولوجى كونيًا فى المقام الأول، وإن تطور الجسد الإنسانى يستوى مع تطور الروح. ومع مراعاة عدم وجود حواجز فاصلة بين الجسد والعقل، لاوبالتالى بين تطور الجسد وتطور الروح، ما دام الجسد المادى هو وعاء العقل والروح معًا.

ومما قد يعزز هذه النظرية تلك المرونة الشديدة التى يتميز بها الجسد الأثيرى فى سلوكه بشأن ظواهر التجسدات الإكتوبلازمية. وإبتداء، يعتقد أكثر الباحثين ـ خصوصًا الفرنسيين منهم ـ أن هذا الجسد الأثيرى ـ حتى فى وضعه المألوف ـ أصغر حجمًا من الجسد المادى فى غيبوبة التنويم المغناطيسى، فإنها تظهر بجلاء وجود فارق يتفاوت فى مداه بين حجم الجسد الفيزيقى للوسيط النائم وجسده الأثيرى. كما يؤيدهم أيضًا بعض صور التجسدات التامة والجزئية، المادية والأثيرية. فإنها بدورها تظهر أحيانًا صغر حجم الجسد الأثيرى بالمقارنة بالجسد الفيزيقى.

ولذا أطلق عدد من الباحثين على هذا الجسد الأثيرى وصف الجسد السيال Fluidique أو الجسد القابل للتشكل Plastique وذلك بالنظر إلى خضوعة للذاكرة، ناهيك بالجسد العقلى الذى يبدو إنه بدوره أكثر مرونة وفاعلية من الجسد الأثيرى. وهذه الإعتبارات مجتمعة تجعل من الممكن إرتداء المبدأ الروحى فى الإنسان جسدًا ماديًا جديدًا أكثر من مرة واحدة، وذلك بأن يتخلل رحم الأم عندما يبلغ الجنين مرحلة معينة من نموه، ويكون بمقدوره احتواء هذا المبدأ الروحى. وهذا الإحتواء يؤدى إلى تراجع سرعة ذبذباته وبالتالى إلى محو ذاكرته الشعورية بما لها وما عليها مؤقتًا. وتكون النتيجة هى السيطرة على هذه الذاكرة ـ إلى مدى أو إلى آخر ـ بحيث يبدو الجنين عند ولادته وكأنه يعيش ـ بحسب الظاهر ـ بدون تاريخ سابق، وبالتالى بدون ذكريات، طيبة كانت أو سيئة. ولكن يمكن لهذا المولود حديثًا فى حالات نادرة عندما يبلغ الرابعة أو الخامسة من عمره، أن يسترجع بعض ذكرياته هذه مرة أخرى.

الطبيعة الدوارة لكل ظواهر الوجود

إن التكوين الروحى للإنسان خاضع للتطور، بمقدار خضوعه لقانون آخر من أهم قوانين الطبيعة وهو قانون «السلوك الدائرى لكل ظواهر الوجود». وهذا السلوك الدائرى نلمسه فى كروية الأرض وحركاتها الدائرية حول نفسها وحول الشمس. كما نلمسه فى سلوك جميع النجوم والشموس والأفلاك والمجرات، فكلها خاضعة لتلك الحركة الدائرية، أو بالأدق لتلك الديناميكية الدائرية التى يسلم بها علم الفلك، والتى تتحكم فى مسيرة هذا الموكب الضخم من الحياة الذى يسكن هذا الفضاء الفسيح فى الكون، وهى بالطبع تتجاوز قدرات تصورنا البشرى.

بل حتى الضوء الذى كان يقال فيما مضى إنه يسير فى خطوط مستقيمة، أصبح بحسب حقائق النسبية يسير على الأمد البعيد فى خط منحنى ويعود حتما إلى مصدره الذى بدأ منه. ولذا نفى إينشتين إحتمال وجود خط مستقيم فى الطبيعة، مهما بعدت المسافة أو قربت. ويعتقد الكثيرون أن هذه الديناميكية الدائرية للأحداث تتحكم أيضًا فى عودة المبدأ الروحى فى الإنسان للتجسد مرة بعد أخرى فى حركة حلزونية متصلة ومتواصلة حتى تحقق الطبيعة أهدافها فينا، وهى تسمو على مداركنا بما لا يقاس، وبما يتجاوز قدرات تصورنا مهما أجهدنا هذا التصور. بل حتى دورة الدم اللازمة لجميع الكائنات الحية تتخذ لها سلوكًا دائريًا مستمرًا لا يتوقف إلا بتوقف الحياة العضوية.

وهذا السلوك الدائرى لكل ظواهر الوجود يدخل فيه أيضًا قانون دورات الحياة العضوية. فنحن نقترض أجسادنا العضوية من تراب الأرض وتتغذى من النباتات والحيوانات التى تتغذى بدورها من تراب الأرض. وبالموت يعود الجسد العضوى إلى تراب الأرض الذى تستمد منه من جديد النباتات والحيوانات غذائها. وما يجرى فى هذا الشأن بالنسبة لجسد الإنسان يجرى مثله أيضًا لجسد أى نبات، أو أى حيوان خضوعًا لهذا القانون الذى لا مفر لأى كائن منه وهو قانون «دورات الحياة». وإذا نظرنا إلى المكونات الأساسية

للغلاف الجوى (الأوكسجين ـ النيتروجين ـ ثانى أكسيد الكربون) نجدها أيضًا فى دورات مستمرة تتفاعل مع مكونات الكائنات على سطح الأرض، وتعود مرة أخرى للغلاف الجوى فى تنسيق يحفظ للغلاف الجوى إستمرار ثبوت نسبة الغازات الثلاثة فيه. وعناصر التربة هى الأخرى تجرى فى دورات دورية منسقة. فعند هبوط الأمطار تذوب بعض المواد المعدنية وتنقل مع مياه الأمطار، وبعضها يعود إلى تربة أخرى اثناء عمليات إنتقال المياه أو فى عمليات رى الأراضى الزراعية والبعض الآخر ينتقل إلى مياه المحيطات.

أما العناصر التى تصل مع مياه الأنهار إلى المحيطات والبحار فتقوم بعض الكائنات الحية والنباتات المائية بالإستفادة منها فى غذائها والإحتفاظ بجزء منها داخل أجسامها وإخراج الجزء الآخر للمياه مرة أخرى. وكذلك نجد أن جميع العناصر الموجودة فى التربة أو فى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية أو فى المياه، والتى يستفيد منها الكائن الحى فى عملياته الغذائية، تعود مرة أخرى إلى مصادرها بعد أو أثناء حياة هذا الكائن الحى. وهكذا نجد أن هناك تنسيقًا (Harmony) يجرى على كوكب الأرض يشترك فيه جميع الكائنات الحية من نبات وحيوان. ويسير هذا التنسيق فى دورات محددة قد تجرى أحداها فى إتجاه عكس الأخرى ولكنها تعمل جميعًا على تثبيت النسب الواجبة للحياة وتواجد الموجودات على وجه الأرض.

والمتفحص لكوكب الأرض بنظرة جامعة، يجد أن هذا الكوكب الذى نعيش فيه يشبه المعمل الكبير. جميع أجزائه فى حركة دائمة من غلاف جوى إلى تربة، ومن عناصر إلى كائنات حية، ومن سحب إلى أنهار ومحيطات، الكل فى حركة دائمة تتداخل مع بعضها البعض.

بل أن كل ذرة على كوكب الأرض تعرف الطريق الذى تسير فيه فى دورات منظمة محددة، دورات منسقة واعية تدل على التخطيط السليم والتنظيم الدقيق المبدع بحيث يحافظ دائمًا ـ وهو فى تحركه ـ على إستمرار بقاء الحياة عليه. وعند أى خلل أو تعطيل فى هذه الدورات المنسقة فإن نهاية هذا الكوكب تكون المصير وتتناثر الحياة على سطحه، ولربما تناثر هذا الكوكب وأصبح شظايا فى

الفضاء (حامد عوض الله ـ مؤلف: الألوهية وفكر العصر ١٩٧٧م).

ويقابل دورات الحياة العضوية قانون آخر هو قانون ديناميكية الحياة الروحية، فالحياة الروحية غير قابلة للفناء لكنها تخضع لنفس القانون فى صيغة أخرى تتخذ صورة إهتزاز بندول الساعة. فكما أن البندول يتردد يمينًا ويسارًا، كذلك تتردد ديناميكية الحياة الروحية دائمًا بين الطبيعة المنظورة والطبيعة غير المنظورة. ويتجلى هذا التردد كأوضح ما يكون فى ظاهرة تجدد الأنسجة والخلايا التى تظهر وتتلاشى على الدوام فى جسم كل كائن حى لأنها تتردد بين الطبيعة المنظورة والطبيعة غير المنظورة فى ظهورها وفى تلاشيها الذى لا يتوقف، وليس بمقدوره أن يتوقف.

كما يتجلى بنفس المقدار فى ظاهرة إختفاء شخصية الإنسان بالموت ـ لا فرديته، وظهور نفس الفردية من جديد فى رداء آخر جديد هو ذلك الجسد الجديد الذى تقترضه الفردية من رحم الأم عند وصول الجنين إلى مرحلة ما من النمو. وهذه النظرية كانت كفيلة بإقناع بعض العلماء بصحة مبدأ العودة للتجسد بوصفه متضمنًا تعليلًا صحيحًا للتطور، ولظهور الحياة، وإختفائها، وعودتها ثانية للظهور كقانون طبيعى يحكم الوجود. ومن بين هؤلاء العلماء كما سبق أن ذكرت العالم الألمانى أوتو فرانك Otto Franck وزميله ديتريش أيكارت Dietrich Ekhart وغيرهم.

فكل هؤلاء العلماء وضعوا فى الإعتبار ذلك التحكم المركزى المذهل فى أنوية الخلايا الحية. هذه الأنوية (جمع نواة) التى تبلغ حجم البلايين منها حجم أقل من حجم رأس الدبوس تتحكم تحكم العقل المنظم إذ تسبح داخلها خيوط متشابكة مكونة من جزئيات ذات طابع خاص، وتخرج منها شفرات تنطلق داخل أجزاء الخلية المحيطة بها ـ تستطيع بها التحكم فى خواص وتفاعلات الخلية. ولكل شفرة تحكم محدد تفاعل معين، ولا يمكن لأى من التفاعلات أو الإنقسامات التى تحدث داخل الخلية أن تتم إلا بناء على شفرة معينة من تلك الشفرات التى تخرج من النواة.

إن عقل الإنسان الذى بلغ قمة الموجودات فى الإبتكار والإختراع لا يستطيع أن يصنع جهاز إليكترونيًا للتحكم فى مثل التفاعلات التى تتم داخل النواة مهما وصل من السمو والتثقيف والعلم. وإذا لإفترضنا جدلًا أنه يمكنه صنع مثل هذا الجهاز فسوف يتطلب حجم ذلك الجهاز مساحة تزيد عن قاعة هائلة. ولكننا نجد هذا الجهاز موجود داخل نواة الخلية التى لا يتجاوز حجم البلايين منها حجم رأس الدبوس الصغير. ومثال آخر، الجزئ الذى لا يتجاوز حجم الملايين منه رأس الدبوس، فإنه يتحكم فى الصفات الوراثية لكل جنس من المخلوقات الحية، نباتية كانت أم حيوانية. وأى تغيير أو تعديل فيه يغير من خاصية الجنس، ويعطى خاصية جديدة للكائن الحى. وهذا الجزئ المكون مملوء بالجينات (genes) ولكل جنس جيناته الفريدة المميزة (حامد عوض الله ـ الألوهية وفكر العصر ـ ١٩٧٧م).

الديناميكية الروحية

إن عملية تجديد الخلايا التى تجرى تلقائيًا بداخل جسم كل كائن حى بصورة تسبب الحيرة والذهول نبهت الأذهان إلى ضرورة العناية بدراسة ما يطلق عليه وصف «الديناميكية الروحية»، بل وإستخدامها كلما أمكن الإستخدام فى تحقيق صحة الجسد وإطمئنان الروح عن طريق سيطرة العقل والروح على الجسد. وفى هذا الشأن يقول المفكر الألمانى «ك.أ.شميدت K.O.Schmidt» فى كتابه عن «الروح والذرة» إن الديناميكية الروحية عبارة عن دراسة نطاق هذه الديناميكية فى الروح وتطبيقها. وهى لا تتبع أية مدرسة من المدارس العديدة فى علم النفس المتعارف عليه، لكنها تنبع تلقائيًا من تطبيق الحياة عندما يتجه التطبيق نحو هدف سام ومثل أعلى، هو السيطرة الظافرة على الذات، وبالتالى على مصيرها.

ويقول «شميدت» أيضًا على أن هذه الديناميكية مبنية على التعرف على قدرة الروح على التواصل إلى السيطرة على الجسد وعلى الحياة، وتنادى بالإستخدام الإيجابى للعوامل التى تشكل مصير الإنسان. وقبله ترسم الطريق

نحو فعالية الفكر، والإيمان المستقيم. فالديناميكية الروحية تقود بوجه خاص نحو إستخدام العقل، ونحو إتخاذ سلوك ونشاط مناسب للوجود، وفى نفس الوقت نحو تحقيق واع للذات، ونحو إتجاه خلاق ومتكامل للمصير.

إن الطاقة التى تشكل محور الديناميكية الروحية تشبه إلى حد كبير الطاقة التى تحيط بالذرات، فمثلًا لاحظ علماء الروح أنه كما أن تفتيت الذرة داخل مفاعل ذرى لا يقضى على طاقتها، بل يطلق كل طاقتها المحبوسة، ويطلق منها ضوءًا باهرًا، كذلك فإن الروح عندما تغادر جسدها المادى تظهر لها طاقات جديدة كانت محبوسة بداخلها، وينبعث منها أحيانًا ضوء واضح نراه كثيرًا فى تجارب الحالات للكائنات غير المتجسدة (تجارب بحثية). لذا يقول شميدت أن تشبيه نشاط الروح بنشاط الذرة هو التشبيه السائد فى العصر الحديث عند العلماء الذين يعتقدون أنهم وصلوا إلى الحقيقة فى محاولات إستكشافهم للروح بوصفها حقيقة قدسية. وعن هذا الإعتقاد تنبعث عدة مذاهب علمية ونفسية ولاهوتية بسبب الإختبارات المتزايدة التى تجرى على ظواهر الشفافية الروحية. وهى مذاهب نسبية ومتطورة مما دفع البعض حتى إلى إنكار الأساس الذى يقع وراء هذه الظواهر. متجاهلين أن الرموز والتشبيهات لا يمكن إلا أن تكون أمورًا نسبية بجانب الحقيقة المطلقة. وكما يجرى فى فيزياء الذرة فإن سؤالًا وحيدًا يمكن أن يثار هنا: وهو أى رمز هنا يقترب من الحقيقة أكثر من غيره؟

وبنفس الطريقة فإنه فى مبدأ ديناميكية الروح يثار نفس التساؤل وهو: أية فكرة رمزية تقترب أكثر من غيرها إلى حقيقة الروح والنفس؟ ولا يمكن إنكار أنه بالنظر إلى درجة النضج الحالية للبشرية فإن الفكرة الديناميكية والتطورية تظهر أقرب إلى الحقيقة من غيرها. وبالذات بحسب الإختبار العلمى والنفسى، والدينى للحياة، يتعين على المرء أن يتحدث ـ على أساس من الصواب ـ عن النشاط الديناميكى الفعال للروح، وعن حقل الطاقات المتصل به، ليس لإستخلاص معادلات رياضية تحكمه، بل لمواجهته بالتعبيرات الرمزية، على النحو الذى كان يعنيه الشاعر الألمانى المعروف (جوته Goethe) عندما قال:

"كل ما يجرى ليس إلا صورة مما لا يقبل الفناء، وهى صورة إنعكست علينا فى عالم الظواهر (أى العالم المادى).

وهذا الشرح التفصيلى السابق كما يقول «شميدت» كان لازمًا لكى نفسر كيف أننا نتحدث عن الطاقة الذرية للروح، التى تشهد بنشاطها القريب جدًا، والذى يختلط خلال الإختبارات الإيجابية بالفكر، وبالنشاط الديناميكى فى مفهوم الرموز والتشبيهات بالنسبة لصيرورة الجسم، والحياة، والمصير. لقد شرح العالم «هيروارد كارنجتون Hereward Carrington» بعضًا من المعانى المماثلة عندما قال: «لقد تقبل العلم الحديث فكرة أن شيئًا ما يمكن أن يكون غير منظور لكن حقيقيًا، وأن الحواس بمقدورها أن تدرك أشياء منظورة أو غير منظورة، وإن كل الطاقات والحقائق غير منظورة وستظل كذلك دائمًا. والوعى هو أعظم الحقائق الكونية، ومع ذلك فإن أية حاسة من الحواس المألوفة لم تصل إليه. والإنسان العادى ينظر إلى نفسه بوصفه جسدًا يحوز روحًا مؤقتة، والحقيقة أن الإنسان روح تحوز جسدًا مؤقت. وهذا أمرًا فى غاية الأهمية نحتاج إلى أن نؤكد عليه حتى تتكون لدينا نظرة صحيحة عن الإنسان فى علاقته بالكون».

إن هذه الأقوال السابق ذكرها لم تصدر جزافًا، ولا نتيجة تسرع فى الإستنتاج، بل صدرت من عالم معروف فى تخصصه فى علوم البحث الروحية وهو الذى أسس «المعهد الروحى الأمريكى ومعمله ـ American Psychical Institute and Laboratory» منذ سنه ١٩٢٠م، ووضع عدة مراجع قيمة فى هذه الموضوعات، منفردًا أو بالإشتراك مع علماء آخرين.

وتظهر أهمية هذه الأقوال عندما نضع فى الإعتبار إنها تمس تكييف علاقة الإنسان بالكون تكييفًا صحيحًا. وهذه العلاقة هى أساس علم المنطق الذى يعتبر المنفذ الوحيد لكل تفكير استدلالى صحيح. وإنه لمن الخطأ الفادح إذا شيدت المعارف الإنسانية على منطق خاطئ أو ضال، كما عهدنا فى معظم العلوم والتى تقوم على أساس من الفلسفة المادية للوجود، متحديًا كل حقائق

الروح. إننا فى النهاية نجد أنفسنا بعض هذا العرض والتحليل إزاء التطور بوصفه حقيقة كونية ثابتة، وواضحة أحيانًا إلى الحد الذى لا يقتضى الوقوف عندها طويلًا لإثباتها. وإذا تقبلنا التطور بوصفه قانونًا ثابتًا من قوانين الطبيعة، فإنه يتطلب حتمًا:

أولًا: وجود جوهر: أى عنصر متطور بمضى الوقت.

ثانيًا: دوام هذا العنصر خلال التتابع غير المحدود لأجيال متعاقبة.

والمعنى بالجوهر هنا هو الوعى، أو قدرة الكائن على أن يكون واعيًا منذ مبدئه على نحو أو آخر. وعند الوصول إلى مرحلة الإنسان، فإن تطور هذا الوعى قضية لا نجد لها فى نظرية «اللاشعور الجمعى» الذى تذوب فيه اللاشعورات الفردية المؤقتة، ولا فى الوراثات من الأسلاف. إنما وراثة الذات من نفسها بسبب تنقلاتها من الجانب المنظور للطبيعة إلى الجانب غير المنظور وبالعكس، فهى تلك التى تفسر وحدها حدوث التطور. كما تفسر أيضًا تلك الفروق الضخمة فى الطبائع التى تبرز بين أفراد متعددين قد ينتمون إلى نفس الجيل، وإلى نفس الوراثة من الأسلاف.

ويتسق هذا القول تمامًا مع مبدأ العودة للتجسد، الذى يقتضى أن يكون للوعى الفردى صفة الدوام، ولكنه من آن لآخر يرتدى شخصية جديدة تبدو مستقلة عن ظروف الوراثة من الناحية النفسية. فالإنسان فى كل ولادة إنما يلتقى تركة المعرفة التى تجمعت لديه من حيواته السابقة ناهيك بدور الوراثة. وكل شخصية ليست سوى مظهر انتقالى ومتتابع لوعى فردى واحد يسير فى طريق التقدم خلال إتخاذه عدة شخصيات متعاقبة (الكاتب جورج شوفرييه ـ كتاب ـ المهمة الخلاقة ـ باريس ـ ١٩١٧م).

يقول الدكتور «جوستاف جيلى Gustave Geley» مدير المعهد الدولى لما وراء الروح ـ باريس، وهو مؤسسة دولية معترف بها رسميًا منذ ١٩١٩م، وهو عالم جليل فى هذا المجال الروحانى الهام:

«أية ذكرى لا تضيع، ولا أي إختبار نفسى أو جوهرى. إن الأعضاء تلحقها تطورات واسعة خلال مجرى الحياة، وبلا ريب تجرد نفسها جزئيًا بعد جزئ. وحالات الشعور تتابع بتغير بعضها عن البعض الآخر تغيرًا كبيرًا أو يسيرًا. وإن الحياة مصنوعة فى حقيقتها من سلسلة حيوات: حياة الطفولة الأولى، ثم حياة الطفولة، فالمراهقة، فالرشد، فالشيخوخة، وكل حياة منها متميزة عن الأخرى رغم أنه يجمع بينها أساس مشترك. وهذه الحيوات تتأثر إلى مدى أو إلى آخر بما يبدو أنه نسيان نهائى لما مضى، وكل نسيان منها يكون للكائن بمثابة موت صغير. ولكن خلال تجدد الجزئيات العضوية، وحالات الشعور هذه، وهو يحتفظ بها بطريقة غير قابلة للمحو. فهى إذن ليست حالات ضائعة، حتى وإن ظلت خامدة فى جانبها الأكبر.

ومع ذلك فهذا ليس كل شىء، فإن الروح اللاشعورية التى تثرى بهذه الطريقة فى مجرى حياتها من كل حالات الشعور المتجددة لا تكتفى بتسجيلها، بل تقوم بهضمها وإمتصاصها أيضًا. لأن جميع ما تحصل عليه من معرفة واعية تهضمه ثم تحوله إلى ملكات. وهذا أمر واضح خلال مجرى ومسار الوجود الإنسانى والكونى حيث نجد أن الكائن ينمو، ويحصل على ملكات جديدة أكثر وضوحًا من الإحساس، والإدراك، والمعرفة. وهذا النمو النفسى لا يمكن إلا أن يكون ثمرة تحول المعارف إلى ملكات. وهذا التحول لا شعورى، وهو لا يجرى فى جزئيات المخ غير المستقرة والفانية، بل يحتاج إلى كيان دائم وعميق فى الشطر الدائم والجوهرى من الكائن، أى فى كيانه الديناميكى الروحى الباطن.

وهكذا يكون التغير المستمر للشخصية الواعية ليس بذى قيمة تذكر، لأن الفردية الباطنة الدائمة تحتفظ بالذاكرة غير القابلة للمحو عن جميع حالات الوعى التى مرت بها. ثم ينتقل دكتور «جوستاف جيلى» إلى أهم نقطة تعنينا هنا مباشرة فيقول إننا إذا كنا لا نجد فى مجرى وجودنا الراهن سوى مصدر جزئى

فحسب من كنز اللاشعور، فإنه يكون من حقنا أن نبحث عما يكمل هذا المصدر فى إختبارات سابقة، وأن نرجع إلى ما وراء الوجود الراهن لتفسير اللاشعور.

ولا ريب أن هذا الإستنتاج خطير، ويبدو للعديد من القراء للوهلة الأولى أنه غير متناسب مع الوقائع التى يستند إليها، بل خارقًا للعقل. ولكن لا ينبغى أن ينظر إلى هذا الإستنتاج على حدة، بل مرتبطًا بمجموع الأدلة الأخرى، وعندئذ يكتسب قوة جديدة. وليس من الصعب أن تتفهم كيف أن «الديناميكية الروحية الجوهرية» عندما تتجسد فى وحدات عضوية جديدة (أى فى أجساد جديدة قادرة على حمل الأرواح) تحتفظ لنفسها بالذاكرة العميقة عن الإختبارات التى حققتها فى تمثلاتها السابقة.

إذا يفترض دكتور «جوستاف جيلى» إنه بدلًا من الحديث عن وجود واحد، ينخرط الوجود الإنسانى فى سلسلة من الوجودات المتتابعة، وإنه يتفهم كيف أمكن للإنسان الحصول على الشعور بادئًا من اللاشعور الفطرى. فإن كل وجود منها ـ وهى وجودات لا حصر لها وشديدة التنوع ـ قد أحدث أثارًا عميقة فى الديناميكية الجوهرية للكائن، وترجم عن نفسه بحالة من الوعى: أى بذكرى، أو بملكة أو بالأثنين معًا. وهكذا يتحول الكائن تدريجيًا من اللاشعور إلى الشعور.

وهذا الإستنتاج لا يتعارض مع المنهج والأساس العلمى، ومن الصعب أن يجد أى باحث جاد أى سبب للإعتراض عليه. أما فيما يتعلق بنسيان الوجودات السابقة، فإنه ليست له أية قيمة بالنسبة للعلم المعاصر، لأن الذاكرة لا تلعب إلا دورًا ثانويًا فى علم النفس الحديث، أما النسيان فهو يحدث دائمًا وفى كل مكان.

إن الواقع يظهر أن الجزء الأكبر من الذكريات الإنسانية يتلاشى خلال الوجود. وذاكرة الإنسان، وأعنى بها ذاكرة المخ، قابلة للمحو، وهى غير ثابتة، وعاجزة، وكثيرًا ما تخوننا فى الحياة اليومية والعادية. وهى كذلك فى حالات الغيبوبة الإستثنائية، كالحالات الثانوية التى تحدث تلقائيًا، أو تلك التى تحدث فى الغيبوبة المغناطيسية أو المسببة.

ولكن فوق هذه الذاكرة المخية، الجزئية، الزائلة، توجد الذاكرة اللاشعورية، أى تلك الذاكرة الفردية الحقيقية الكلية، غير القابلة للزوال، ولا للتدمير، شأنها فى ذلك شأن الفردية نفسها. ففى هذه الذاكرة الأساسية تظل محفورة للأبد جميع أحداث الحياة الحاضرة، وجميع الذكريات، وجميع المكاسب الواعية التى تم الحصول عليها عن طريق السلسلة العظمى للحيوات السابقة.

وهكذا إستنتج دكتور «جوستاف جيلى» إنه يمكن لنا أن نتفهم تمامًا التطور الفردى من خلال هذا التفسير، وإنه يمكننا أن نحل جميع المشكلات الطبيعية والفلسفية المتعلقة بالفرد. ولاريب أنه من وجهة نظر علماء «ما وراء الطبيعة» فإن فكرتنا تجد مكانًا متسعًا لها، لكن من وجهة نظر علم النفس فإنها لا تترك لغزًا بغير حل له. ثم يأتينا «جيلى» بماهية مصير الإنسان مستندًا إلى إستنتاج رئيسى، وهو إن إندماج الشعور فى اللاشعور سيؤدى إلى إضاءة جوانب هذا الأخير شيئًا فشيئًا، وسيأتى وقت لا يعد فيه ثمة شىء غامض عن اللاشعور. وعندما يصل الإنسان إلى ما نطلق عليه «قمة التطور الروحى» بمقدار ما يمكننا أن نتصور هذه القمة، فإن الإنفصال الظاهر، أو الحاجز الوقتى بين الشعور واللاشعور سيختفى. وكل ما يكون الكائن مثل الملكات والمواهب والمعارف، وكل ما حازه خلال ماضيه الهائل من خبرات يصبح فى متناول يده، كلية، ومباشرة، وبإنتظام، وبصورة طبيعية. حتى الملكات فوق المألوفة والغير معتادة ستكون رهن إشارة إرادتة الواعية.

هذه هى بعض جوانب فلسفة «جوستاف جيلى» عن التطور الروحى من اللاشعور إلى الشعور، وهى فلسفة أصلية وتعتمد على حقائق وصفية كثيرة وتفسر العديد من الغاز الوجود التى صادفها جيلى فى حياته العادية، كما صادفها فى بحوثة الروحية بكافة أنواعها الفيزيقية والعقلية والتى كان يجريها داخل «المعهد الدولى لما وراء الروح» بباريس. وهى إلى ذلك تعطينا تعليلًا يتعذر تمامًا الحصول على أفضل منه عن مصدر الإدراك خارج الحواس، وتحديدًا يتعذر الحصول على أنسب منه لحقيقة الصلة بين اللاشعور والشعور، ولموضوع كل منهما من تطور ملكات الإنسان، ولصلة ذلك كله بالعودة المحتملة للتجسد الأرضى مرات ومرات.

وثمة نقطة فى هذه الفلسفة لا تثير الآن أى نقاش فى دوائر الباحثين، وهى أن الإنسان الراهن لا يمثل تجسدًا تامًا لكل عناصر وعيه، أى لكل عناصر تكوينه الشعورى واللاشعورى، بل أنه يمثل فحسب تجسدًا عارضًا لجانب يتفاوت فى مداه من هذا الوعى الذى يعمل خلال المخ، حين يظل باقية ـ إلى مدى أو إلى آخر ـ خامدًا خارج إطار المخ والجهاز العصبى للإنسان.

وخلاصة القول عند المقتنعين بدوام حياة الإنسان بعد الموت كنتيجة تفرض نفسها فرضًا تأسيسًا على بينات لا تحصى توصل إليها أسلوب التحقيق الوضعى، إن الإنسان يكون بعد تخليه عن جسده الترابى بفترة تتفاوت فى مداها أفضل مما كان قبل هذا التخلى، من الناحيتين العقلى والوجدانية. وهذا التحول نحو الأفضل يجئ نتيجة زوال الحاجز القديم بين الشعور واللاشعور، والذى كان من صنع الجسد المادى الخاضع لهيمنة المخ والجهاز العصبى، وهما جهازان بالغا الضعف بالمقارنة بالعقل والجهاز الأثيرى، وهذا حتى إذا صرفنا النظر عن الأمراض الجسمانية التى قد تصيب المخ والجهاز العصبى من شتى المصادر وأولها الشيخوخة، وكل أمراض الدورة الدموية أيضًا، بالإضافة إلى الأمراض التى تصيب المخ والأعصاب بصفة مباشرة. ولذا نجد أن بعض الباحثين فى الدراسات الروحانية يتحدثون كثيرًا عما يسمونه «ذواتنا العظمى» التى نحصل عليها عن طريق «عملية الموت» أو بالأدق عن طريق عملية التحول عن طريق الموت أى مغادرة السجن الرهيب الذى يعتقل جانبًا هامًا من وعينا وبالتالى يعطل الأستخدام الكامل لحواسنا وملكاتنا الفطرية، ألا وهو الجسد المادى بكل ما يتحكم فيه من عناصر الضعف المتوازنة أو المكتسبة.

و«ذواتنا العظمى»، أو بالأدق ذواتنا التى تسير سيرًا حثيثًا وإن كان بطيئًا نحو النمو والثراء فى العقل والوجدان، عن طريق العلم الصادق والخلق النقى، هى موضوع فلسفة النقى فى علم الروح الحديث، كما هى موضوع فلسفة الروح فلسفة النفس فى علم الحديث. إن علم الروح الحديث ويشاركه فى ذلك بعض علماء علم النفس الحديث يعتبرون الموت مرحلة لا تمثل فناء للإنسان، أو بالأدق للعنصر الخالد فيه وهو مبدؤه الذاتى Ego Principle، أو فرديته الروحية

Psychical Individuality بحسب تعبير العالم «وليام مكدوجال»، بل يمثل «تحولًا من الحالة العضوية إلى تلك الحالة اللاعضوية التى جاء منها»، وذلك بحسب تعبير العالم النفسى» سيجموند فرويد «فى آخر طبعة له من كتابه «معالم التحليل النفسى». وذلك عندما اقتنع فى أواخر حياته وبعد طول مكابرة وعناد بدوام حياة الإنسان بعد الموت. وهذه المكابرة الطويلة تضفى على إقتناعه المتأخر قيمة خاصة نظرًا لمكانته العلمية الكبرى فى تاريخ علم النفس.

وثمة تساؤل أخر فى هذا الفصل، وهو أنه إذا كان تفسير كل هذه الظواهر المتلاحقة التى تنتمى إلى نوعية الظواهر فوق المألوفة والتى حللها بناء على نظريات التطور الروحى والعلوم الروحية فى هذا الفصل، فينبغى للقارئ الميل إلى قبول مبدأ العودة للتجسد كمبدأ طبيعى، لإنه ما من سبب آخر يدعونا فى النهاية إلى تجاهل هذا التفسير المناسب.

كان من الممكن أن يتجه العلم الموضعى إلى غير هذا الإتجاه ويحاول بكل السبل الوصول إلى تعليل آخر، لو كان التعليل بالعودة للتجسد لا يتواءم مع ما حصل الإنسان عليه من معطيات أخرى متنوعة عن حقائق الوجود المختلفة المتصلة بالوعى الإنسانى، وبالتطور وبالمادة وبوجه عام بالمبادئ العامة فى الطبيعة الإنسانية وفى البيولوجيا والسيكولوجى. ولكننا رأينا أن التعليل بالعودة للتجسد يبدو إلى الآن أكثرهما توافقًا مع هذه المعطيات فى حالتها الراهنة، ناهيك بمبادئ الفلسفة العامة، والعقائد المقارنة منذ أقدم العصور إلى الآن.

ومع ذلك فقد تردد بعض العلماء فى قبول التعليل بالعودة للتجسد، ولا يزال يتردد بسبب الإرتباط المسبق برفض هذا التعليل، وإن كان العدد الأكبر منهم أخذ يتحول تدريجيًا إليه بسبب توافقها الصارخ من جهة أخرى مع المعطيات العلمية المتنوعة التى سبق التعرض لها إلى حد إننا نتوقع أنه لن يمضى وقت طويل إلا ويكون الإعتقاد بالعودة للتجسد قد أدرج نهائيًا بين هذه المعطيات نفسها.